«الأسلاف يتميزون غضباً»

كاتب ياسين

مقدمة

ما أقل أن يحدث، فى تاريخ الأدب، أنّ شخصيةً روائيةً أو مسرحيةً تكتسبُ بعداً وعُمقًا أسطوريّين: أنْ يستطيع الكاتب أن يخلق مثل هذه الشخصية، أو على الأصح يستقطب عناصرها من دوّامة الواقع الحىّ المضطرب، ويبلورها، ويكسبها هذه السمات الثابتة الخالدة - إن صح القول - التى تمتاز بها الشخصيات الأسطورية. وبالطبع لسنا نعنى «الخرافة» عندما نقول «الأسطورة». بل نعنى الأسطورة بالمفهوم الذى يتفق عليه معظم الكتّاب اليوم، وهو المفهوم الذى كان يسود المجتمعات التى آمنت بالأسطورة. أى نعنى بها الرمز عن الحقيقة، وتجسيد الواقع. ومن هذه الشخصيات الأسطورية القليلة فى الأدب المعاصر شخصية «نجمة» المرأة المتوحشة، وشخصية «لاخْضر».

أن نقول «نجمة» اليوم هو أن نقول: الجزائر.. أو الوطن.. أو الأم. أصبح الجميع يعرفون مَن هى «نجمة»، وأن نقول «لاخْضر» اليوم، هو أن نقول: هذا المناضل الجزائرى، هذا الفارس المقاتل، هذا المكافح الشهيد الذى يعرفه العالم كله. إن قصة كفاح الجزائر قد أصبحت أسطورة من أساطير العالم المعاصر. وما من شك أن ثمّ التحاماً وتفاعلاً مزدوجاً - هنا - بين الأدب والواقع وأنّ كلاً منهما قد أغنى الآخر وأثراه وعمّقه وأن نجاح الكاتب الذى أبدع هذه الشخصيات يُعزى إلى أنه كان يمتح من ينبوعٍ على غاية من الخصوبة والعمق.

وهذا الكاتب – أو على الأصح الشاعر : هو كاتب ياسين.

ولد كاتب ياسين في الجزائر في سنة ١٩٢٩ . وترك الجزائر وهو في الرابعة عشرة من عمره. ونشر أول ديوان شعري له «مناجيات» Soliliques وعمره ١٥ سنة. ودخل السجن بعد ذلك بأشهر. واشتغل صحفيًا، وعاملاً في إحدى المزارع الريفية في فرنسا، وحمالاً في ميناء مرسيليا، وأصبح بعد استقلال الجزائر أول مدير للمسرح القومي الجزائري.

في ١٩٥٥ نشرت مجلة إسپيري Esprit أول مأساة شعرية لكاتب ياسين هي «الجثة المحاصرة». وفي ١٩٥٦ نشر كاتب ياسين روايته ذائعة الصيت: نجمة Ndèjma وعلى الفور تَعرَّف العالم في كتابته على معالم كاتبٍ عظيم، وله أصالة. فكتب الناقد الفرنسي المعروف موريس نادو قائلاً إنه «يحالِف في عمله بين أعمق الشعر وبين وضوحٍ وصفاءٍ لا يعوقهما عائق».

«الأسلاف يتميزون غضبًا» هي المسرحية الثالثة من ثلاثية «حلْقة الثأر». أولى هذه المسرحيات هي «الجثّة المحاصَرة» تتلوها فَارْس صريحة هي «مسحوق الذكاء» ثم مأساة «الأسلاف يتميزون غضبًا» وينتهي الكاتب بقصيدةٍ درامية هي «الصقر».

وفي حديثٍ لكاتب ياسين عن أعماله قال إنه استوحى الشكل المسرحي اليوناني القديم، وإنه على الأخص تأثر أعمق التأثر بالأوريستيَة لأيسخولوس، وبالشكل الخاص الذي اتخذه بريخت للمسرح.

لذلك نجد أن للكورس دوراً هاماً في مسرحيات كاتب ياسين الشعرية، ويصفه الكاتب في هذه المسرحية بأنه يلعب دوراً غامضاً مزدوجاً، ألاّ يظهر كثيراً في مجرى المسرحية، وأن يؤكد نفسه، في الوقت نفسه، على نحوٍ حاد، بإزاء الجمهور. كاتب ياسين يرى في الكورس صوت الواقع الذي يجب أن يعلو، وأن يتضح، وأن يجمع شتات عناصر الواقع المتكاملة التي لايمكن أن تحيط بها جميعاً شخصية واحدة من شخصيات المسرحية. ونحس هنا أن الكورس عند كاتب ياسين يجمع بين وظائف الكورس اليوناني القديم ووظائف الحيل الفنية التي يلجأ إليها بريخت ليحقق أثر «التغريب» المعروف. فالكورس إذن، عند كاتب ياسين، يقدم الأحداث والشخصيات، ويعلّق عليها ويشارك في تطورّها، كما كان يفعل الكورس اليوناني القديم، ولكنه أيضاً يعلو على الأحداث والشخصيات، ويبتعد عنها، ويبعدنا عنها، حتى نتأمل، ونسأل، ونفكّر، في نفس الوقت الذي نحس فيه، ونتأثر، وننفعل.

تبدأ مسرحية «الأسلاف يتميزون غضباً» بمشهد هروب من السجن، بَطَلاه هما اثنان من المثقفين الذين انخرطوا في ملحمة كفاح الجزائر الرائعة في وجه الاستعمار الفرنسي. يفرّ مصطفى وحسن، ويظهر الكورس لكي يُنوح مصير ضحايا النضال المجيد، ويدين هذه القسوة «العلمية» المحسوبة المتعمدة، التي يفيد منها المستعمر في كبت الثورة التي لا تُقهر، وهذه الآلية الوحشية التي هي مظهر من مظاهر القرن العشرين سواءً في حضارته أو في مجازره ثم نعرف «طهار» الخائن العميل الرجعي الذي يقتله مصطفى برصاصة من مسدسه،

رصاصة سوف يندم أن أطلقها إذ سوف يحتاج إليها فى معركةٍ مع الصقر.

والصقر هو «الشخصية» الفذة الغريبة التى تسيطر على هذه المسرحية وتُظلّها وتنفخ فيها روحًا أسطوريةً غائرة العمق متعددة الأبعاد.

ليس من السهل، ولا هو من المرغوب فيه، أن نفسر الرمز فى العمل الفنى. فليس من شأن الرمز أن نحلّله إلى عناصر عقلية، وليس من شأننا أن نضع معادلةً حسابيةً نساوى فيها عناصر العمل الفنى الغنية الكثيفة المعقدة بعناصر التفسير المحسوبة المجردة العارية. وهذه المسرحية على الأخص، نسيجٌ شعرىٌ حىٌ لا يقبل التحليل ولا التجريد. ومن الخير أن نتلقاها كما نتلقى الموسيقى العظيمة، بحساسيةٍ تتيح لنا معرفةً أكبر وأعمق، وتتخطى المعرفة العقلية الصاحية الباردة.

لذلك فإننا نخطو إلى أرضٍ حرام، وسَبِخة، تغوص فيها القدم، لو أننا حاولنا التفسير والتعرية والتجريد. ومع ذلك فمن الممكن أن نقول إن الصقر هو روح القبَلية، والرجعية، والسلَفية. وهو ممثّل الماضى والأصول البعيدة والتراث معًا، فهو إذن يجمع بين ما هو شرٌّ صراح وما هو خير صراح،معًا، فى كيانٍ واحد. هو إذن - ككل شىء عضوىّ حىّ غنىّ - وحدةٌ بين متناقضات، هو الماضى الذى يعيش فى الحاضر وينطلق نحو المستقبل، فى وقتٍ معًا، لكنه أساسًا خلْق شِعرىّ خصيب لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق العمل الفنى متكاملاً ومن خلاله.

أما المرأة المتوحشة فهى بالطبع نجمة، والمرأة المتوحشة هنا هى بالطبع الجزائر، هى الأمّ، وهى الوطن، لكنها أيضًا، على مستوى آخر، هى الأرض كلها، هى أصل الحياة، هى جوهر التجدّد والخصب والتوالد. ثَمّ صور جنسية وعضوية فى المسرحية تشير بوضوح شعرى موحٍ إلى هذا الفهم. المرأة المتوحشة، نجمة، هى الأم الأولى، أيضًا، كأنها آخر اسم أسطورى ينضاف إلى أسماء أسطورية أخرى: إيزيس، عشتروت، ديميتر، وأم الإله.

مصطفى وحسن وجهان مختلفان لكيانٍ واحد يجمع بين الابن، والعشيق، والزوج، كيان جديد يحل محل «لاخْضر» الشهيد. والعلاقة بينهما، أو بين هذا الكيان الواحد وبين المرأة المتوحشة هى العلاقة الخالدة القديمة بين الابن الحبيب وبين الأم الأولى. هى أيضًا العلاقة بين حاملى لواء التحرر والكفاح وبين موضوع هذا التحرر، موضع هذا الكفاح. حسن ومصطفى هما المقاتلان اللذان ينطلقان، لا يلويان على شىء، نحو المستقبل، نحو الحرية.

أما «الصَقْر» فهو الذى يحوم دائمًا حول نجمة، يريد أن يتوحد بها، يريد أن يفترسها، يريد أن يردها إلى السلَفية، يريد أن يُنْفِذ رسالة الأسلاف، يريد أن يمد ظل الموت.

تنتهى المسرحية بصراعٍ قصير بين الشقيقين، بين حسن ومصطفى. ثم يخرج مصطفى، بعد أن يقتل حسن، لكى يقاتل الصقر فى معركة ضارية، فوق جسد نجمة الممدد. لكن مصطفى لا يموت. إنه من جنس الذين لا يموتون، إنه يمضى سحابة العمر بين السجون والمنافى، لكنه أبدًا لا يموت...

ولكن ماذا يهم تسلسل الأحداث فى المسرحية؟ لسنا هنا بإزاء عمل سردىٍّ من نوع أعمال بدايةِ القرن التاسع عشر. إن الظروف الحضارية التى نمر بها لم تعد تقبل مثل هذه الأعمال الفنية السردية التى عرفناها فى مسرح ورواية عصر ازدهار البرجوازية. إن هذه المسرحية تدور فى عصر العالم الثالث، والتحرر الوطنى، والاشتراكية، والانطلاق نحو مستقبل جماهيرى حافل بالمتناقضات، هذا العصر، وواقع هذا العصر، أنْجَب أعمالاً فنية جديرة به. والعمل الفنى اليوم لابد أن ينبثق عن هذا الواقع الحافل بالمتناقضات، الغنى بالتعقيدات، ولابد أن ينقل نفس الإحساس بالغنى والتناقض والتعقيد، هذا الإحساس بالتفاؤل- صحيح - ولكنه التفاؤل المأساوىّ إن صح التعبير.

لذلك صَحَّ أن «الأسلاف يتميزون غضباً» هى بالفعل من التراچيديات القليلة جداً التى تمخض عنها الأدب العالمى المعاصر. تراچيديا بكل خصب وسموق التراچيديات القديمة، وبكل المعاصَرة التى لابد أن تتوفر لها فى الوقت نفسه.

فى المقدمة التى كتبها الناقد المعروف إدوار جليسان Edward Glissant لهذه المسرحية أنّ لغة هذا العمل شعرية، أى أنها لا تتردد فى التعبير، بغموض، عما هو غامض فى الإنسان، ولكنها تنطلق أيضا فى نبرات دقيقة واضحة، لأنّ ثَمَّ حقائق يجب أن تقال بلا مداورة. مثل هذه اللغة، محرقة تارة ومعتمة تارة، مثل ليل الصيف، سريعة وفعالة كأداة فى اليد، مثل هذه اللغة توائم العمل، وأنَّ ثَمَّ أعمالاً تتغلغل إلى أعماقِ عصرنا، وتتشكل من جذوره الأساسية، وتستنبط منه أغنيته العميقة،

وأنّ السمة الأساسية لهذه الأعمال أنها تتصور العالم أساسًا على أنه مخاض، على أنه عمل يجب تحقيقه، وليس سراً يجب أن يُكشَف، على أنه وحدة مقسّمة يجب جمع شملها فى النهاية، هذه الأعمال إذن لا تجرى على سطح الأشياء وعلى سطح العالم، بل هى تهدف إلى النفاذ إلى الواقع بأخفى وأعمق أسلوب، وإلى التعبير عنه فى تلك المواقع المفصلية، فى تلك العُقَد الحساسة التى لا يستطيع إلا الشعراء أن يكشفوها وأن يحيطوا بها. هذا الأسلوب يتجاوز الاتساق المسطّح للواقع، ويختار التفاصيل الموحية ذات الدلالة لكى يجعلنا نحس قلب الواقع نفسه.

إن مأساة عصرنا هى مأساة الإنسانّ الفرد بإزاء الجُموع، مأساة المصير الشخصى فى مواجهة المصير الجماعى، ومسرح كاتب ياسين نموذج لهذه المأساوية المعاصرة التى يحاول فيها الفن المعاصر أن يقترب من العالم، أن يوفق بينه وبين نفسه، وأن يُنير بذلك المصير المشترك لكل الناس.

والواقع الذى تعبر عنه هذه المسرحية هو واقع الشعب الجزائرى، إن «نجمة» المرأة المتوحشة، دائمًا هناك، فى قلب هذا الواقع، تحدد أبعاده. الرموز كلها، حول هذه البؤرة المشعة المتوهجة، تتحدد فى غنى وتعقد وحيوية، ولا يمكن تعريتها إلى مجرد أقنعة جوفاء.

لقد أصبح كفاح الجزائر ضد المستعمر الفرنسى فى سبيل الحرية والاستقلال أسطورةً باهرة فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين، ولكن الجزائر فى نهاية هذا القرن تحولت إلى فاجعة رهيبة.

فلعل «الأسلاف يتميزون غضباً» تذكرنا بأيام المجد والنضال ولعلها تنفث فينا نسمة أمـــل بإزاء ما يحـــدث الآن من مجـــازر غير مبررة، ذلك شيء بشع وقبيح يستعصي على الفهم. هـــل قُدّر للجانب الشرير من «الصـقـر»، الجـانب السلَفيّ الإظلاميّ الوحشيّ أن تكون له الكلمة الأخيرة؟

أم أن «الأسلاف يتميزون غضباً» ؟

أوقن أن الإجابة في جانب الأمل والغضب .

«الأشخاص»

١ – الحارس
٢ – أصوات فى الظلام
٣ – حسن
٤ – مصطفى
٥ – قائد الكورس
٦ – كورس الرجال
٧ – طهار
٨ – قائدة الكورس
٩ – كورس الفتيات
١٠– الصقر
١١– المحارب القديم
١٢– كورس الأسلاف

(زنزانة سجن فى ساعة النداء)

الحـــارس : محمد بن صلاح

صوت فى العتمة : موجود. . .

الحـــارس : عمار بن على

صوت فى العتمة : موجود

الحـــارس : محمد بن أحمد

صوت فى العتمة : موجود

الحـــارس : مصطفى بن محمد

صوت فى العتمة : موجود

الحـــارس : حسن بن. . .

حـــســـن : موجود

الحـــارس : عيّنتم الذى يسهر الليلة من بينكم؟

حـــســـن : (مشيراً إلى مصطفى) مصطفى متطوّع للسهر الليلة. .

الحـــارس : (لمصطفى) ماذا؟ أنتَ دائمًا؟ دائمًا متطوع للسهر

مـــصـــطفى : مادمت لا أنام، أسهر.

(ينسحب الحارس ويوصد الباب. المساجين نائمون على طول الجدران، ملابسهم مطوية تحت رؤوسهم. تمتمة. أصوات ترتفع. مصطفى، من مكانه ، يشير إليهم بالسكوت. بعد صمت وجيز تمتمة من جديد. فجأة ينهض حسن، ويأخذ في السير وهو يضرب بقدميه ذات اليمين وذات اليسار، ولكنه لا يستطيع أن يُقِرّ السكوت إلا لحظة قصيرة. تستمر التمتمة)

حســـن : وبعد، ألا تريدون أن تسكتوا؟

(صوت زائف)

حســـن : (لمصطفى) أشعل قداحتك.

(مصطفى يشعل قداحته)

حســـن : كلهم راقدون؟ سنبدأ إذن. .

(بخطوات رياضية، حسن يدور حول الزنزانة عدة مرات، وهو يخطو على أجسام الرجال الراقدين في تصلّب بلا حراك، كما لو كانوا على استعداد لهذه الطقوس العقابية الغريبة. لا صرخة ولا تنهدة. قافلة من المساجين والجنود تعبر المسرح).

الكورس : (يجلس في مقدمة المسرح،بين الأطلال التي لا تاريخ لها والتي تتميز بها الجزائر. الكورس المكون من رجال ونساء، يلعب دوراً مزدوجًا : ألا يظهر بشكل واضح في طريق مرور الجنود، وأن يبرز وجوده واضحًا حاداً بإزاء الجمهور).

قائد الكورس : مساجين آخرين.

الكورس : وجنود آخرين.

قائد الكورس : يذهبون جميعًا إلى الساحة المضلعة.

الكورس : الساحة المضلعة؟

قائد الكورس : نعم، هناك يرمونهم بالرصاص..

الكورس : الساحة المضلعة، الساحة المضلعة، الساحة المضلعة..

قائد الكورس : لقد قاسوا أبعاد كل شيء.. إنهم يقضون وقتهم فى قياس أبعاد الإجراءات التى يتخذونها ضدنا. الساحة المضلعة فى الهندسة هى كل شيء..

الكورس : هناك فى نفس الموقع، هناك حيث يرمونهم بالرصاص، معسكر اعتقال.

مصطفى : (ملثما، ينفصل عن الكورس) هذا صحيح. كنت هناك من عشر سنوات.

قائد الكورس : عندنا ثروة من الساحات المضلعة..

الكورس : من غير أن نحسب حساب المدافن.

قائد الكورس : من غير أن نتكلم عن الأرض الخلاء. أما السجن فهو ترف. استعدادًا للسلام.

الكورس : الساحة المضلعة، الساحة المضلعة، الساحة المضلعة.

قائد الكورس : (بلهجة المتفقه ببواطن الأمور) إن كل أرض ساحة مضلعة وكل البلاد ساحات مضلعة، لها حدودها فى

المجال الأرضى. هناك مساحات مضلعة منتظمة الأضلاع، سداسية الأضلاع، مثل فرنسا.. وهناك ساحات غير منتظمة الأضلاع.

(صمت. قافلة جديدة تعبر المسرح)

قائد الكورس : مساجين آخرين.

الكورس : وجنود آخرين.

قائد الكورس : آه... لو كان المساجين مسلحين...

الكورس : ولو أمكن تجريد الجنود من السلاح.

(عند هذه الكلمات ينفصل حسن، وهو ملثم، عن الكورس، ويشير إلى سلاح مخبوء تحت سترته)

الكورس : (بدهشة عميقة) هذا حسن.. إنه مسلح..

حسن : هل تعرف طهار؟

قائد الكورس : طهار؟

الكورس : آه، نعم، طهار.. طهار.. سى طهار..

قائد الكورس : سيدى طهار.. هذا الرجل الطيب.. دائمًا تجد عنده كسكسى للفقراء والمساكين ولكنه لسوء الحظ يقيم فى مكان بعيد.

حسن : أنت تعرف إذن أين يقيم..

(ظلام. نور. الكورس قد اختفى. حسن ومصطفى فى مقدمة المسرح، يرتديان زى ضباط الجيش الفرنسى)

حـسـن : في الحيـاة، وفي الحـرب على الأخـص، في الشعب، أو في وجه العدو، يجب أن نلعب كل الأدوار ونرتدى كل الأزياء. . حتى زى الجيش الفرنسى الذى نرتديه الآن.

مـصطفى : أنت عندك مـوهبة المـمـثل. . أما أنا فـأحس الرعب في التمثيل. .

حـسـن : لا تتظاهر بالبـراءة. . ها نحن قـد ترقينا وأخذنا رتبـة جـديدة. ونحن ننتـقل الآن إلى الجـانب الآخر، حـتى نزور سيدى طهار، رئيس جمعية تدين بالولاء للوطن الأم، فرنسا. الجيش يحرس أراضيه الواسعة ليل نهار. نعم. سوف يرحبون بنا، ويستقبلوننا استقبالاً عسكريًا رسمياً. (خطوات) (ينتـقل النور. حـارس في مـوقع حـراسـتـه. جنود وقـد اسـتـبد بهم الـضيق والمـلل بشكل واضـح، وقـد أثار ثائرتهـم أنـهم قد جـندوا في الجـيش لا لشيء إلا لكى يضـمنوا أمن أحـد العـمـلاء الاسـتـعـمـاريين، أمـا هذا العـميل، طهـار، فهـو مـتربع في وسط المسـرح، يرشف الشاى ويأكل قطعًـا صغيرة من الجاتوه. مـشرب الوجه، أصـابعه ممـتلئة بالخـواتم، وعلى رأسـه عـمامـة سـامقـة المعمار، في يده مروحـة وفي اليد الأخرى سواك أسنان، أصابع قدمـيه تتوفز يضمهـا نعل رشيق. إنه رجل يعيش في سـلام وينعم بالسـلام، رجـل من فـئة الرؤسـاء. ومن حين لآخر عندمـا تتعبه المروحة ويضـيق بالمسواك، يلجـأ إلى المسـبحـة، تحت أنظـار الجنـود السـاخرة.

يمر بعض الوقت تتبدى فيه معالم شخصية طهار، وتتضح كل دلالتها. ثم يدخل حسن ومصطفى، دخلة عسكرية وتحييهما فصيلة الجنود كلها وقد وقفت وقفة «انتباه» يذهبان رأسًا إلى طهار الذى ينهض متعجلاً للقائهما).

حسن ومصطفى : (وهما يحييان) سيدى الرئيس.

طهار : (يرد التحية بكلتا يديه) سيدى الكولونيل.. سيدى القومندان...

مصطفى : نحن بحاجة إليك. مسألة مستعجلة. عندنا اجتماع فى قسم الشرطة للاستعداد للانتخابات.

طهار : (وقد سال لعابه أمام الإغراء) آه صحيح.. صحيح. الانتخابات.

حسن : أنت الرجل الذى وقع عليه اختيارنا.

مصطفى : تعال بسرعة... السيارة فى انتظارك...

طهار : (يتظاهر بالارتباك) ولكن ياسيدى الكولونيل. ياسيدى القومندان...

(ظلام. نور. المشهد خاو.. يدخل حسن ومصطفى وهما يدفعان طهار أمامهما)

مصطفى : نستطيع أن تقف هنا...

طهار : سيدى الكولونيل.. سيدى القومندان...

(يقفان، حسن يبدأ الاستجواب. مصطفى يقف فى الحراسة على أهبة الاستعداد).

حسن : فلنبدأ من البداية، يقولون إنك تعرف نساء كثيرات. . .

طهار : **(وقد ثاب إليه الاطمئنان)** آه. . هذه إذن حكاية نسوان. .

حسن : هناك امرأة تهمنا نحن الثلاثة. . انظر إلىّ. وحقق النظر.

(حسن يرمى بقبعته العسكرية الفرنسية، ومصطفى يتبعه، طهار ينظر إليهما مذهولاً، ثم يأخذ فى التسبيح، وهو يرتعد)

طهار : لا إله إلا الله، محمد رسول الله. . .

حسن : عندك وقت تتلو فيه الشهادتين، فيما بعد. أما الآن فتكلم عن هذه المرأة.

مصطفى : ولا داعى للكذب. نحن نعرف. .

طهار : سى حسن. سى مصطفى. أولادى. . .

حسن : لا. القبعة العسكرية الفرنسية والشرائط العسكرية الفرنسية تحرك من أنفك إلى أى مكان. . دائمًا. . أنت، وأمثالك. . على فكرة. .

(حسن يقترب من طهار، ويخرج سكينه من غمده. مصطفى يقف بينهما)

مصطفى : (يقف بينهما) حسن.. دع سكينك الآن..

حسن : لن نضيّع عليه الذخيرة، الرصاصة، خسارة فيه.. إما أن نقطع عنقه أو أن نشوه خلقته.. تذكر لاخضر يامصطفى.

مصطفى : أنا أذكره.. فى أول مرة وضعونا فيها فى السجن، أنا ولاخضر، كان معنا شخص قطعوا له أنفه.. فى مسألة تتعلق.. بالشرف.. أهل البلد عندنا يعتبرون الأنف علامة الشرف.. يقولون عنه «النيف».. ولكن جدع الأنف لم يغير من واقع الأمور شيئًا.. كان دائمًا وضيعًا بعيدًا عن كل ندم أو وخز للضمير، مادام هناك مبرر، سلفًا، لحقده وكراهيته.. دائمًا يتمرغ بحثا عن قذارة جديدة. هل تعرف لماذا كان هناك، فى السجن، مع الوطنيين. لأنه كان قد قتل صبياً يهوديًا صغيراً فى الثالثة عشرة من عمره، صديقنا من الطفولة، أنا ولاخضر. كان يظن أنه بذلك سيستعيد شرفه ومكانته، مادام لا يستطيع أن يستعيد أنفه المجدوع.. جزاء حقير.. ستقول لى: لا أمل عندنا فى إصلاحه.. إنما نريد أن نضرب به مثلاً رادعًا.. ولكن الشعب دائمًا صادق الحس، صادق الفراسة.. سوف يدرك إن آجلاً وإن عاجلاً، أننا أضعنا وقتنا هدراً. إذا لم يكن للخونة

أنوف، كما يقـــولون، فمـا الجـــدوى فى أن نحرمهم مما ليس لهم . .

حـــسن : أى أنك، باختصار، تدعو إلى العفو الشامل، فى ذكرى اليهودى الصغير؟

مـصطفى : دعنى أستجوبه.

طهــــار : (دامعًا) آه . . يا ولدىّ . .

مـصطفى : هذه المرأة . . هل رأيتها؟

طهــــار : (يستعيد رباطة جأشه) من زمن طويل . . طويل جدًا . .

مـصطفى : أين هى؟

طهــــار : لا أعرف، والله . . أستصرخكما باسم الإنسانية . .

حـــسن : وقريبًا سوف يعلمنا الأخلاق . .

مـصطفى : أين هى؟

طهــــار : لا أعرف . . لا أعرف . . ورأس ابنى لا أعرف . .

حـــسن : أى ابن؟

طهــــار : الـ . . (يستدرك) الأصغر . . (حسن يستل سكينه)

طهــــار : امرأة غـريبة . . يقـولون إنها عـاشت فى فرنســا . . فى بار . . وهنا . . مع زنجى أسود . .

مـصطفى : استمر . .

طهــــار : وهى الآن، دائمًا مع ابنها، وهو وغــد صغير، فى بطن وادٍ . .

مصطفى : وادٍ؟

طهار : يقولون عنه وادى المرأة المتوحشة.. نعم يقولون أشياء كثيرة. بل يزعمون أنها روضت صقراً..

حسن : ها هو ذا يخدعنا من جديد.. يحكى لنا حكايات تصلح للبنات الصغيرات..

طهار : (وقد شطت به سذاجته الخبيثة، وإن كانت حقيقية، أساسية) اسألوا.. حتى.. سوف يقولون لكم عن حكاية الصقر الذى يأتى لزيارتها والذى أعطته اسمها..

مصطفى : أى اسم؟

طهار : (قلقًا، كما لو كان أسرف فى الكلام) اسم..

مصطفى : أى اسم؟ (وهو يستل سلاحه من غمده)

طهار : (أقرب إلى الموت منه إلى الحياة) لاخضْر..

مصطفى : ياخائن (عند هذه الكلمة يطلق مصطفى النار، وينهار طهار)

حسن : عظيم.. تركتنى وراءك ببعيد.. نعم، إننى أفهم. أردت أن تنتقم للاخضر بيديك.. ولكنك سوف تندم على هذه الرصاصة..

(ظلام. ضربات «جونج» متطاولة. نور. يستمر التمثيل من غير انقطاع. فى ظل شجرة برتقال برية تتناثر ثمارها على الأرض، فتحدد مناخ موقع المأساة، امرأة مشعثة

الشعر حافية القدمين، لا تتخلى عن حجابها الأسود فلا تتميز ملامحها إلا فى لمحات، حينما يجيش انفعالها).

كورس الفتيات : (وهن يدخلن) ها هى ذى هنا . . ها هى ذى هنا . .

قائدة الكورس : ها هى ذى شجرة البرتقال . .

الكورس : نعم . . ها هى ذى شجرة البرتقال التى لا تثمر إلا الفاكهة المريرة . . ها هى ذى الوفرة العقيمة لهذه البلاد . .

قائدة الكورس : وها هى ذى . هى . مازالت تحت سطوة الشيطان.

الكورس : (يغنين) هيا بنا إلى الحج . إلى وادى المرأة المتوحشة . .

المرأة المتوحشة : (تجفل) ماذا تُرِدْن منى؟

قائدة الكورس : نحن وحيدات . .

الكورس : نحن وحيدات . . الرجال قد ذهبوا إلى الحرب . . جميعًا . . إلى الحرب، أو إلى السجن، أو إلى المنفى . .

المرأة المتوحشة : (ساهمة) وحيدات . . هكذا كنا دائمًا . ولكننا اليوم نبلغ خاتمة الحساب . الآن . . أو لا نبلغ الخاتمة أبدًا . .

الكورس : نعم . . تكلمى إلينا . . تكلمى . .

قائدة الكورس : نحن وحيدات . فسّرى لنا ماذا تعنى وحدتك . .

المرأة المتوحشة : إما الآن . . أو لا نبلغ الخاتمة أبدًا . . إنها الحرب . . فلنأخذ حرياتنا . .

قائدة الكورس : (فى هيبة) حرياتنا؟

الكورس : (فى حماسة) نعم. . نعم. . فلنأخذ حرياتنا. .

قائدة الكورس : (فى هيبة) حرياتنا؟

الكورس : (فى حماسة) نعم. نعم. . فلنأخذ حرياتنا. .

المرأة المتوحشة : لنا ميزتان: الحداد وحمل الأثقال. فلنضف إليهما ثالثة: الشـراسـة والغـضب. . . فلنزحف، نحن أيضًـا، إلى القتال. .

(يمر وقت. المرأة المتـوحـشة تحـدق إلى نقطة فى الفـراغ، يبـدو أنها تنتظر إشـارة. الكورس- فى إيمان بالخـرافة - يتعلق بنظرتها).

المرأة المتوحشة : هل أنتن على استعداد: هل أنتن بحاجة إلى سلاح؟

قائدة الكورس : (فى قلق) سلاح؟

الكورس : (فى انفعال) نعم. . سلاح. .

المرأة المتوحشة : انظرن. . **(تشير إلـى مؤخرة المسرح، صورة صـقر تحلق فوق جانب من جدار)**

الكورس : الصقر. . الصقر. .

المرأة المتوحشة : حيثما يحلق الصقر فليست الرمة ببعيد. . وحيث توجد الرمم يوجد السلاح. .

(يمر وقت، ظلام مطبق. لا يُـرى إلا الصقـر مـحلقًـا فى دوائر واسعة على الجدار. ثم يسـمع صوت رصين بعيد، تقطعه ضربات «الجونج»)

الصقر : أيتها الفتيات اليافعات.. ليس في وسعكن أن تسمعنني. وليس في وسعي الكلام. هذا القلب المصنوع من الصلب، هذا القلب الذي يختل ميزانه، قد فقدت مفتاحه على يدي هذه الساحرة التي تدعوكن للقتال..
لقد عرفت كيف تخدعني عن مصيري
لست بمستطيع أن أقول كيف يولد الحب من أحشاء الموت..
فما ينبغي أن نهرول الخطى مع العذارى
ولكنكن إذ تذهبن إلى المذبحة
فلست بمستطيع، أنا الصقر، أن أثنيكن عن عزمكن.
سوف أسهر على أن أسلبكن من أفعوان القبر..
أن أنتزعكن من قبضة المشرحة المثلوجة
وإني لآمل أن أنقضّ، وشيكًا، على المتوحشة
وقد خلصتُ، أخيرًا، من هذه الأجنحة التي توهن قواي..
عندئذ لن يكون عليّ أن أكشف الحجاب عن حقيقتي، إذ سوف أحصد آخر أنفاسها، كانت تلك.. وستظل هذه.. هي النهاية الوحيدة التي أبتغيها..
هذه الشعائر، شعائر المعجزة، شعائر العرس والحداد معًا، حيث يهتز المفقود بأنفاس الحياة..

حيث تعود الأرملة إلى العالم من جديد. .

(يمر وقت. نور ضعيف على الكورس الذى يتهامس فى فزع)

قائدة الكورس : طائر غريب. .

الكورس : لم نره قط من هذا القرب. .

(يتزايد الفزع فى صفوف كورس الفتيات اللاتى يقتربن من المرأة المتوحشة وقد خرست، كأنما هى غائبة، تحت شجرة البرتقال)

الصقر : أسفا. . مهما حاولتُ أن أبقى على مبعدة. .
مهما حاولتُ أن التزم اللغز الذى يحيط بى
فإننى أبث الرعب فى القلوب
إننا على كوكب واحد، فلماذا لا نستطيع أن نحس معًا
بشيوع الرحلة الواحدة؟

الكورس : **(فى محاولة لتلمس كلمة من المرأة المتوحشة)** طائر غريب. . طائر غريب. .

المرأة المتوحشة : (فى سخرية) لقد جاء من الشرق، وهو يقيم فى الغرب
رسم هيروغليفى فى الشمس. .
فالصحراء من ثم هى بيئته الطبيعية
إنه النحات العظيم للهياكل العظمية
الصقر الأسود الأبيض يرى نفسه فنانًا. .

الصــقــر : لا يهم.. ما دمتِن لا تستطعن أن تسمعننى..
فسوف تتلقين، بصوت آخر،
إجابتى اليائسة..
أيتها الفتيات اليافعات.. أيــتها الفتيات اليافعات.. أنتن
اللاتى يستأثر بكن العــجب، فمن أجلكن أهب نفسى،
لكى تُفترع بكارة ذاكرتى..
من أجلكن أنــتن العــذارى اللاتى تركــتــهن الحــرب،
والمنافى، وحيدات..
حتى تمتح الأسطورة فى ابتساماتكن غير المصدَّقة
من المـلح الذى يعطى الجرح مذاق القوة..
أريد أن أقترب منكن تحت نظرة الناسكة الجارحة..
فى مهب الرياح..
نعم.. هأنذى.. إننى أهبط
بلا منعة.. ياللسخرية..
إن أكثــر أفكارنا هشاشة قـد تغلغلت إلى داخلى.. إلى
كل جوارحى..
زهرة وجذر معًا.. إننى أستيقظ معهما، ملتصقين أحدنا
بالآخر،
زوجًا لا ينفصل أحدهما عن الآخر..
كل منا يقضى لياليه فى أحلام الآخر.

(فى خـــلال هذا المنـولوج كـبـان الصـــقـر لا يـكف عن التحليق.. يمس مشـاعر المرأة المتوحشة أخيـراً، فترفع إليه أنظارها، وقد بـدت عليها أمـارات الانفعـال. فى خلال العبارات الأخيرة، تنعكس صورة الصقر، ضخمًا كبيراً، على الجدار، وقد طوى جناحيه)

الكورس : (فى ذهول) الصقر.. الصقر.. إنه يهبط..

قائدة الكورس: إنه يتردد فى الهبوط..

الكورس : ويتردد أيضًا فى الابتعاد..

قائدة الكورس: (فى سخرية زائفة) شرب أكثر مما ينبغى له من الأثير..

(ظلام مطبق، على الجدار لا يُرى شىء على الاطلاق)

الصــقـر : إننى أعرف كل أنـواع الثمل، وأعرف أمـضاها وأفـعلها ثملاً

لكننى أعود إلى النجم المعتم أفضى إليه بشكوكى

وأدمدم، غير مفهوم، نحو تلك التى لا تفهم

كما تُكتشف ضحية يظن بها الموت

وكما يَنْشق المرء، فى العناق، دما حاراً سخنا..

قريبًـا قربًا يدعـو إلى الهلع.. وكمـا لو كان المرء، فى فوضى الجسد يلتهم فَمَ آخر.

(يمر وقت. ضـربات «جـونج». أنوار قاسـيـة على المرأة المتـوحشة، وهى مـطروحة على الأرض مـحبـوسة وراء

حجابها الأسود، في وسط الفتيات اللاتى يستأثربهن الانفعال. تنهض المرأة المتوحشة، أخيراً، وترفع ابتهالاتها إلى الصقر، بالرغم من أن صورته لم تعد تظهر على الجدار)

المرأة المتوحشة : لا ، إننى لا أبكى . .

لقد عاش مثل قطاع الطريق

عاد ظله

وهو يهيم من جديد فى حرية موقوتة لن تطول

قد اقتحم الكثير من زنزانات السجون

ولم يكن له، قط، إلا الهرب

يبارح قبره كما كان يبارح السجن فيما مضى

دائمًا تُشدد عليه العقوبة

رأسه يتدحرج فى قلبى، بصوت سقوطٍ دائم أبدى

نعم. . هذا الحجر الوحيد يكفى لرجمى

شهاب يمسنى ويصعقنى بلا هوادة

أنا هو. . دائمًا هو. . يعود فيندمج فى الفراغ

حيث لا عودة ولا جزاء

إنه يستفزنى إلى حيث ظل وطن الموتى

وكل الخرافات تأتى عنه. . هناك

كورس العذراوات : إلى حيث ظل وطن الموتى

(يمر وقت. يعود الصقر للظهور يحلق في دوائر واسعة)

الصـــقـر : لم يعد هناك حب.. لم يعد هناك أحد.. لم يعد إلا ا ا...
لم يعد إلا ا ا.. طائر الموت. رسول الأسلاف.

كورس العذراوات : (هاربات. دون أن يتـركن المشهـد) طائر الموت، رسول الأسلاف.

المرأة المتوحشة : (متضرعة) أيها الصقر. ابتعد

الصـــقـر : آه. لو أن قيلوت الـشيخ.. جدنا الأعلى جـميـعًا. لم يكن قد أرسلنى، لرغـبـتُ أن أعيد الأرملة إلى القـبيلة وأن أدلهـا على الطريق المشئـوم الذى يحف برمم الموتى نحو حب قيلوت وكل ذويه. ياللتـعس لو أنها تأخرت. سوف تجـد هناك أكـثر من عاشـق واحد وأكثـر من أخ واحد.. وعندئذ سـوف يصعد العـاشق حتى يصل إلى الأسلاف، إلى قيلوت الذى لحـقه الفناء. إلى الكارثة. وهأنذا أستجيب للإغراء واوحّد نفسى بالعشيق. وهأنذا ما أزال أحلق فى شبكة العذاب الطويلة وقد ابتعثت حيًا من جديد بعثًا مريراً وهأنذا أصيبُ بالتحلل والفساد إلى ما لانهاية. تلك الصورة الحبيبة النهائية أنىّ لى بها أيضًا وإذا كنت طياراً فإن ثقـتى أن النار تتهددنى ومن الممكن أن أنفجـر بها وأنا أحلق فى قلب الهواء حـتى ولو كان دُوار الهواء - هذا الشـبح العنيد - ينتزعنى من المتـمردة ويحرم علىّ الدنو منها.

كورس العذراوات : (يدرن فى حلقـات يسـخرن مـن الصقـر) دُوار الهواء.
دُوار الغرام. دُوار الهواء. لا علاج له.

المرأة المتوحشة : (فى فزع) أيها الصقر. ابتعد. إننى أعرف، إننى أعرف أنك لاخْضر الـقديم - أنت الحيوان البشـع الذى اغتذى بجيـفته، أنت طائر الأسلاف ينبـوع الدم الأسود، أنت المطهر الضـارى الذى اغتذى بكل رفات عشـيرتنا، أنت لاخْضـر القديم. الجثة المحـاصرة التى يحلم ظلها كـما تحلم الأرواح بحثًا عن جسم جديد.

الصــقـر : (يهبط) هذا الجسم الحى.. هو أنت؟

كورس العذراوات : (مبتـعدات) أى ميثاق بينهمـا. هذه المتوحشة وبين طائر الموت.

المرأة المتوحشة : بفضل الوحدة. تعلمت فى غيبوبتى، لغة الظلال
وفى انتظار عودته تعلمت كيف أنال الروح والريب معًا
فهو يجب أن يتنكر
كـالخمـر التى تبـعث الدوار. يعـرف كيف يسـرى فى الشرايين التى اسودت بفعله ويعـرف كيف يشرب معى،
وكيف ينازعنى...
لم يترك لى شيئًا.

إن طفله اليتيم، مـثله تمامًا، لا يشبع، مهتـصر، يجرى
في الطرقات ولم تعد عندى له أدنى ذكرى
الصـقـر : لقد أعميت بصيرتى. فلم أعد أعرف من ينير لى الطريق
يلاحقنى صمته بالعذاب. صمت قبلوت
لم أعد أعرف أن أتنحى عن الطريق ولا أن أفرض شريعتى
ألا خبرِّينى. ما إذا كنت ميتًا مقضيًا عليه
مهما حاولت أن أحلق فى الهواء. فإن ظلى يزحف فى
دم المرأة المتوحشة
وقد ثملت كما لم أثمل قط فى حياتى
ولكن الخمر لم تكن قط أدعى إلى الحزن
هذا صحيح أيتها الفتيات، قد سكرت من الأثير
بعد مثل هذا الخريف المغتصب. لم تعد الغصون نفسها تعرف
كيف تتتابع فى موكب كئيب
ما من بنفسج معذب يبقى منه العبق بعد أن يفنى
كما يبقى العبق من قبلوت
إننى أكيل لنفسى التُهم كما تكيل لنفسها
كل دموعها لا عداد لها. . ماسات عين باقية قاطعة
سواء كانت تبكى محرومة من الفـريسة كأنها فرس ضارية
أو كانت تصعد فى داخلى كأنها جثة.

الكورس : إنه يهبط. لقد شرب أكثر مما ينبغى من الأثير. الصقر الأسود الأبيض.

الصقر : أيتها الفتيات الشريكات فى نظرات المتوحشة المجنونة.
زنزانات منفاها المدوّى
هل قُدِّر لى أن أرى جمالاً أسوأ من هذا الجمال فى طريق عودتى
ولكن فيم العودة للحياة من أجل الموت
النَفَس القديم يترصدنا على عتبة فردوس غامض معتم
كم سقط من بين أولئك الذين غامروا برؤية الجثة الموعودة
سقطوا بطعنات الخناجر
لكن هذا الخنجر هو مفتاح اللُقَى الموعودة.

قائد الكورس : المقاتلون.. مصطفى وحسن. نعم. جئنا إليكم بالعملاء.

الكورس : أما نحن.. فلنلقِ بحليّنا وجواهرنا النسائية فى مقابل السلاح

(يمر وقت. ينطفىء النور. يظهر رجلان ملثمان. يمران بجوار الحائط، فيظهران بإزاء صورة الصقر. يلقيان بأسلحة فى تجاه الكورس. وفى مقابل ذلك ودلالة على الالتزام تلقى الفتيات بحليّهن ويأخذن الأسلحة).

قائد الكورس : لكم الشرف.. لكم الشرف أيها المقاتلون الذين تحررون النساء.

الكورس : لكم الشرف أنتم الذين تحسون آلام أولئك اللاتى يختبئن
لكى يلدن الأطفال،
اللاتى يرمين بحليّهن. لكى ينخرطن فى سلك القتال
(خطوات عسكرية)
(عند هذه الكلمات تتجمع الفتيات فى صف استعداداً للزحف العسكرى وقد استدرن نحو المرأة المتوحشة التى تتردد متعلقة بصورة الصقر وقد عادت تظهر على الجدار إذ تنحى الرجلان فلم يعودا يحجبان الصورة وراحا يعبران أحدهما وراء الآخر فى صف منفرد على طول الجدار).

الصقر : اذهبن. اذهبن لتنظفن بأيديكنّ الناعمة قاذورات الشعب.
اذهبن أنتن اللاتى تؤرقنه من نومه

المرأة المتوحشة : (على رأس المجموعة) أسلحتنا ساذجة ومرهوبة
كالشعب الذى يهرع تلبيةً للنبوءة
نعم سوف نغفل هزيمة القرون الطويلة
وسوف تشتعل من جديد نيران بلادنا
بعد أن ارتدت إلى الطفولة.

قائد الكورس : فى كل مكان من البلاد ينتزع الناس الأرض لأنفسهم
حتى الجثث تشد الأرض عليها كما يُشد الغطاء

وشيكًا لن يكون ثم مكان ينام فيه أولئك الذين يظنون أنفسهم أحياء

(موسيقى عسكرية. خطوات)

(تنتظم المجموعتان بسرعة وتأخذان فى السير)

الكورس : (الرجال والفتيات كل فى دوره) وأخيرًا. . ها هم العمالقة الذين جاءوا من الغابات يقذفون إلى النار بالحصاد الزائف.

(تعبر المجموعتان المشهد وينخفض النور. تُسمع طلقات النار تقترب أكثر فأكثر وصيحات وأنين، يُسمع صوت يردد هذه الجملة البسيطة)

الصوت : إنها الحرب

(ويردد الكورس هذه الجملة من وقت لآخر كأنها حكم بالإعدام وأخيراً يخلو المشهد ويمر وقت. ضربات جونج متطاولة. حسن ومصطفى وقد عادا يذرعان المشهد جيئة وذهابًا إنهما يسيران فى قلب الصحراء.)

مصطفى : دائمًا نفس الشيء يتردد باستمرار. يردد الثرثارون إن الحرب انتهت ويتكلم الناس عن ذلك فى المقاهى.

حسن : ليس لذلك أدنى أهمية. شعبنا قد عرف الحروب وهو يعرف حقّ المعرفة أن حربًا مثل حربنا هذه لم تنقطع أبدًا. ولن تنتهى أبدًا

(تبدأ المجموعة في السير. على نحو غير محسوس إذ تتأخر كأنها على البلاتوه الدائري وهي تواصل إنشاد ترانيم القتال)

قائدة الكورس : (**تنحني تحت ثقل بندقيتها**) نحن اللاتي نتلقى كل الضربات أول ما نتلقى وأنّى جاءت الضربات.

إن ثقل الموت هذا ينوء بنا وإنما يجب علينا أن نحيا

نحن نحس رغبة القتلة كأنما نحس رمحًا مرتعدًا في صدورنا

(طلقات رصاص توحي بمعركة في موقع قريب)

(يقتحم المشهد رجال يتضح من الشعارات التي يحملونها أنهم من أنصار جيش الشعب يتعانق الرجال والنساء وهم يتبادلون المداعبات).

قائد الكورس : سلامًا أيها الجيش الصغير من العيون السود النجلاء.

قائدة الكورس : سلامًا أيها السادة، قطاع الطريق. هل تلعبون أدوار العساكر

(يمر وقت. بعد أن تنحسر موجة الترحيب والحماسة تتخذ المجموعتان أماكنهما في صفوف استعداد للسهر وترتفع نبرة الكورس سواء من جانب الرجال أو من جانب الفتيات إلى مستوى رصين)

كورس الفتيات : لا يعود الأمل يراودكم بعد في رفقة أكثر جمالاً.

بأعينكم أنتم سوف يرى شعبنا النور

فلنبذل جهدنا أن نتعرف كل النجوم بين أحراش الشجيرات
حيث تمت حمرة الصيف فصولاً.

قائد الكورس : هل ترون أن تأتين معنا؟

قائدة الكورس : في ساعة التضحية جمعت بيننا أمنا الجزائر ولم تعوزنا الشجاعة.

مصطفى : في هذه الصحراء التي ليس عندنا فيها شيء، ولا شيء يقينا ويحمينا، ولا تجدي فيها تشكيلات القتال إذ علينا أن نقاتل هنا في أرض خلاء، وأن يتقدم جيش في العراء، تحت ضوء النهار، بإزاء جيش، في هذه الصحراء، حيث نحن لا شيء، في هذه الصحراء التي لم تحتفظ بأثرٍ من كل الامبراطوريات، في هذه الصحراء ما من قوة يمكن أن تخيفنا ولا أن تفسدنا. إن من يحمل قذائف الشمس في الظهر لا يخشى هجوم البعوض.

حسن : هناك أخبار جديدة أخرى؟

مصطفى : لا جديد. رأى العرب الرحالة بالقرب من الحدود عند المغرب امرأةً محجبة بالسواد مع نساء أخريات كن يتبعن قافلة. أنا أردد لك ما يقولون لا أكثر.

حسن : وهل عبرت هذه القافلة الحدود؟

مصطفى : ربما.

حسن : أخطأنا إذ تركناهنّ دون حماية. مازال المغرب الكبير بعيداً

مصطفى : بيننا وبين السلطات معاهدة. لا يمكن للجيش الملكى أن يتجاهلها

حسن : وقع لاخْضر ضحية للغدر عند الحدود وسُلِّم للعدو هناك

مصطفى : سلطان اليوم ليس هو سلطان الأمس

حسن : لا عليك إلا أن تقرأ الصحف

مصطفى : لست من أولئك الذين يقرأون بين السطور

(يمر وقت. حسن ومصطفى قد خرجا من المشهد. ينعكس النور من جديد على الجدار حيث يحلق الصقر، ثم ينعكس على قافلة من النساء يرشدها دليل من المحاربين القدماء، نتعرف من بينهم على المرأة المتوحشة من حجابها الأسود).

المحارب القديم : (بصوت نسائى وحركة رجل) من هنا الطريق اتبعننى (صوت ريح)

المحارب القديم : (عيناه شاخصتان إلى الجدار) أيها الصقر ابتعد. لسنا بشيء عندك ولست بشيء عندنا. أيها الصقر. أيها الصقر كفى مطاردة لنا. . ما من أحد بيننا موضوع للموت أيها الصقر.

(الصوت يحلق ويواصل التحليق على الجدار)

المحارب القديم : (عيناه شاخصتان إلى الجدار. مشيراً إلى الفتيات) فلتكشف كل العذارى الحجاب، أيها الطائر الملعون.

انظر، كل هؤلاء الحسناوات المقاتلات مخصصات للجيش الملكى.

يجب أن يكافأ رجالنا على ولائهم فى هذه الأوقات العصيبة. أما هذه، أصعبهن منالا وأنفذهن شوكًا (يشير إلى المرأة المتوحشة) هذه المرأة المتوحشة، فإننى أتولى أمرها.. لقد روضت فى زمنى أفراسًا أعصى وأكثر جموحًا..، ليس عندى لك شىء فى قافلتى أيها الصقر أيها الطائر الملعون، ابتعد عن طريقى..

(ينفجر المحارب القديم ضاحكًا، راضيًا عن فكاهته الغليظة، لكن الصقر يواصل التحليق بينما ينخفض النور، وتحط القافلة رحالها لقضاء الليل. فى حمى العتمة، يقترب حسن ومصطفى بصمت. وبينما يترصد حسن المحارب القديم، ويطعنه فى الوقت المناسب بخنجره بهدوء، دون أن يأتى بحراك، يتقدم مصطفى نحو المرأة المتوحشة وهى مستلقية على الأرض. ما أن تلحظه حتى تطلق صرخة. تستيقظ الفتيات مُجفلات، ويتفرقن فى فزع، فيصطدمن بجثة المحارب القديم، حسن ينزع لثامه بدوره، أما المرأة المتوحشة فإنها تظل شاخصة إلى الجدار الذى يستضىء فجأة، ويظهر عليه الصقر، ضخمًا كبيراً. يضرب الصقر بجناحيه، فى غضب، بإزاء هذا اللقاء الذى لا يستطيع أن يتدخل فيه).

المرأة المتوحشة : خذنى بعيـدًا، لاخضر، لاخضر خـذنى بعيدًا. لا أريد أن أسقط تحت سطوة سلطان غدر سلفه بسلفنا. . نعم، أذكر لاخضـر الذى غُدر به فى السنة السابعـة عشرة من كـفـاحـه. غـدر بـه السلطان الذى أوغـرت صـدره انتصاراتنا، نعم السلطان القـديم الذى يرسل خلفه اليوم كلابه فى أعـقابنا، وينتـهز حـدادنا كمـا ينتهـز حربنا، ليفاوض على صحرائنا، على تراب أجدادنا بعد أن يسلم للشرطة أصابع يدنا الخمسة، نعم، تذكَّرْ زعماءنا الخمسة المسجونين من جراء أعماله. نعم، تذكر، لاخضر. .

مـصطفى : (على حـدة) هذا مـا يـنعش ذاكـرتى. . إنهـا تنادى لاخضر، أما أنا فـلا اسم لى، لقد حل المحاق باسمى، حـقًا وعـدلاً. لم يعـد إلا أن أضع اللثام من جـديد. وحـتى لا يبـقى شىء مما كـان، حتى لا يـعرف قـدس الأقداس إلا زيارة الأفـاعى، يجب أن أطارد امـرأة أعز أصدقائى ويجب علىّ دائمًا أن أسمع صوتى، وأنا مهدَّد ومبعـد. ويجب علىّ أن ألطخ أثر الصديق، وأن ألاحق الهاربة وأن أضع اللثام حتى أدافع عنها.

قائد الكورس : (ظلام. نور) سـار حـسن ومـصطفى والمرأة المتـوحشـة وسرنا معـهم، نتلمس جميعًـا أثر طريق فى الصحراء. وفى خـلال سيـرنا بخطوات منهكة، سقطت الـفتـيات خائرات القوى. . .

(قائدة الكورس مقدر لها أن تعى المأساة وتحياها كاملة، فسوف تقص إذن قصة الثلاثة التائهين فى الصحراء قبل أن تهبط هى أيضًا فى مقدمة المسرح. أما حسن ومصطفى والمرأة المتوحشة، فهم يلعبون أدوارهم، فى أثناء كلامها، وفقًا لما تقول، وفى نفس الوقت. إذن فإن دورهم يجب أن يكون أخرس صامتًا، حتى يتخذ كل دلالته).

قائدة الكورس: وراحوا يسيرون، يطاردهم الجيش **(طلقات رصاص)**

من غير ماء، من غير خبز، من غير ذخيرة من رصاص

راحوا يسيرون حتى فقدان الصواب. وهذيان الصديقين،

بمحضر المرأة، يطلق المنافسة بينهما من عقالها.. المرأة

المتوحشة تفقد حجابها. ولم تعد لديها القوة أن

تستعيده، يتبدى جمالها ونظراتهما تقول: من الخير أن

نموت، فى غمار هذيان آخر.. هذيان أدعى إلى العزاء.

(نتعرف، فى قسمات المرأة المتوحشة، على «نجمة»)

من الخير أن نطفىء، بين ذراعى المرأة، بين ذراعى نجمة.

ولكنها متوحشة، أكثر شراسة من أى وقت مضى.

تسير على مبعدة، فى قيظ الشمس، كلها وقاحة، وهى

فى الليل تحدد مدى الساحة المضلعة التى تنتشر فيها

النجوم، بينهم. نعم، إنها تسير، ولكن على مبعدة،

وتجرى الدراما على غير علم منها.

(يمر وقت، نرى حسن ومصطفى يقفان وجها لوجه)

قائدة الكورس : (بإيقاع سريع) وبنظرة واحدة، يصعق الصديقان أحدهما الآخر.

لقد فهما، كل منهما، أن أحدهما يجب أن يسقط، ويقفان، ثابتين بلا حراك على الرمال، كأنهما صخرتان، لكن هذا التحدى هو فى نفس الوقت وداع. اعتراف بصداقة يحيق بها الظلام فى أوج سمتها. إنهما يطلقان النار، فى ضربة واحدة، والدموع فى عيونهما. . . نعم. . الدموع. . الدموع فى عيونهما. .

(حسن ومصطفى يطلقان النار على أحدهما الآخر..)

(يسقط حسن. كانت المرأة المتوحشة تسير على مبعدة، فلم تدرك شيئًا مما حدث، لقد انقضى المشهد فى خطفة... ولكن طلقات النار قد استرعت انتباهها، فهى تستدير، وتسقط أمام جثة حسن)

قائدة الكورس: سقطت على الأرض، بضربة واحدة لا تصدق، كأنما أسقطها رجع الرصاص وها هى ذى تنطوى، المرأة المتوحشة، وتركع على ركبتيها. .

(يمر وقت. مصطفى يدير بين يديه مسدسه الفارغ، فى غضب. ثم ينتزع المسدس الذى سقط من يد حسن، ويرميه بعيداً، بنفس الغضب: لم يعد فى المسدسين

رصاص، مصطفى يتأمل طويلاً الجسمين، والمسدسين، على الرمال).

قائدة الكورس : حانت ساعة الصقر..

أما ذلك الذى بقى حيًا وحده، مصطفى، فلا يملك من أمره شيئًا.

لا يملك حتى أن يطلق على نفسه أداة الموت

فلم يعد فى كلا المسدسين رصاص.

سخرية كان موعودًا بها،

ذلك الذى أسرف وفرّط فى رصاصة

ضيعها على خائن كان يكفى أن يجدع له أنفه

الكورس : لحسابه الآن مقتلان، هذا الطالب، هذا المقاتل الجديد.

قائدة الكورس : وبعد أن ثـأر لصديقه، هوذا يقتل صديقًا آخر..

ولم ينته الأمر بعد..

حانت ساعة الصقر..

الكورس : كل حرب هى مقتل للأخ بيد أخيه

كل حرب حق تعيد إلى الذاكرة

أكلة لحوم البشر، مقترفى الإثم بالمحارم

قائدة الكورس : نعم، كل حرب تشبه حرب اليونان فى سبيل هيلين

من الحب إلى الموت، الحرب هى أقصر طريق..

ومهمـا أوغلنا فى البعد، فـإن امرأة متوحشـة تأخذ فى التهام الرجال دون كراهية، دون شفقة.

ومن الموت إلى الحياة يظل اختيارها غامضًا.

إنها أصل قبيلة النسر والصقر..

(ضـربات «جـونج». يضـعف الـنور. نرى فى مـقـدمـة المسرح مـجمـوعة من الشـيوخ قـادمين يحملون لافـتة. مكتـوبًـا عليـهـا بحـروف كـبـيـرة: «اللجنـة المركـزية للأسلاف»)

(فاصل ظلام)

كورس الأسلاف: **(فى الظلام)** نحن الأسلاف، نحن الذين نعيش فى الماضى.

نحن أقوى الحشود وأعظمها، لا تكفّ أعدادنا عن الازدياد

ونحن ننتظر المزيد، حتى ننوء على الأرض بثـقلنا الخفى

وعليها. شرائعنا.

نحن، اللجنة المركـزية للأسـلاف، إننا نهم أحيـانا بأن نتحـدث إلى الأرض، بأن نقول لأولادنا: تمسكوا بأذيال الشـجـاعة، خـذوا أمـاكنكم فى سـفن الموت، تعـالوا انضـمـوا بدوركم إلى أسطول الأسـلاف الذى لن يلبث حتى ينتصر على الزمان والمكان.

ولكن الأحياء لا يعرفون كيف يعيشون ولا كيف يموتون

ولا يفكـــرون لحظـــة واحـدة فى الأســـلاف الـذين
لا يبرحونهم ليل نهار..
ومع ذلك فإن من يسمع لا يمكن أن يخطئ الفهم.
ذلك الذى لا يخشى أن يتأمل الفراغ
سوف يرى النقطة السوداء التى تروده، تكبر وتتضخم
بعد أن ضاقت بنا السبل. وقع اختيارنا على الصقر
الذكَر الذى لا تحوم حوله الريب، حامل رسائلنا
نعم الصـقـر، مـروره حكم بـالموت.. إنه يحلق فـوق
سكرات احتضـاركم فى تأملاته البعيـدة التى لا تبستكين
إلى راحة.

قائدة الكورس: (فى الظلام) حانت ساعة الصفر..

(عند هذه الكلمـات نرى صـفًـا من جنود العـدو يرتسم على الجـدار، تحت صـورة الـصـقـر وهم يتـفـحـصـون الآفاق.. ضربات «جونج» متطاولة)

هوذا مصطفى يستجمع شتات نفسه
لمرأى جنود الأعداء، ومرأى الصقر الذى يحلق فى الهواء
إنه يتذكر أن حسن كان لديه سكين
وهو يفتش جيوب ضحيته..
ولكن السلاح الأبيض عقيم هنا

لا يمكن أن يرد على رشـاشات صف بأكـمله من الجنود
صف من الجنود سوف يتخـذ مواقعه، فى نصف دائرة،
حولنا ما من وسيلة للفرار ولا للخداع
فى هذا الاتساع الشاسع من النور والرمال
لا تبقى إلا الطعنة اليائسة
لكن مصطفى لا يستطيع أن ينفذ قدر المرأة التى يحبّ
إنه لا يستطيع أن يهجرها
إنه لا يستطيع أن يوقظها، ولا أن ينتزعها من الصقر
ولا أن يدافع عنها فى وجه المهاجمين، ولا أن يقبل القتل..

(ظلام على الجـدار. ينتـقل النور.. مصـطفى، سكينه فى يده، يقتـرب من المرأة المتوحـشة الراقدة بـلا حراك، لكنه قد زايلتـه كل قوة، معلقًـا بالفعل النهـائى الذى عليه أن يقوم به)

مـصطفى : ها هى ذى الوردة التى قُبض على عنقها، قد مالت على ساقهـا، قد بلغت نهاية قدرها. أينبـغى أن تُترك الوردة لعواصف الرمال، لقبلة الصقر؟
أيجب علىّ أن أذبح الوردة أم أن أقبل تدنيسها؟
أيتـها المـرأة المتوحـشـة، إن إراقة الـقليل من دمك هى الجريمة الوحيـدة التى أحرم منها.. لم أكن قط عـصيًا، بما يكفى، على الانفجار المفاجئ للتنافس.
إننى لن أستطيع أن أطوح بك..

قائدة الكورس : (يبدو كأنهـا تختار التضـحية) إنها تمضـــى بلا عقاب، وقد اشتهت العنف منك، عنفًـا يمضى بلا عقاب. دعها تنكسر عليك.

مـصطفى : (يناضل ويتخبط فى قبـضة ضرورة القتل) لو أننى كنت ضحية وخز للضمير؟

لو أنها كانت تنتظر منى الضربة القاضية؟

أى قاتل لا يخشى هذا القتل الذى لا يوجد فيه مذنب؟

أيمكننى هنا أن أشوه الوجه النسائى، أن أشوه القدر الخارق؟

قائدة الكورس : تعسًا للمنتصر فى كل انتصار من انتصاراته

ليس لحداده من نهـاية، فإن تلك التى لم ينتصر علـيها تثقله وتنوء به.

(صـورة الجنود تـتـحـدد على الجـدار، بحـيـث تحـجب الصقر، الذى يتـخبط بإزاء هذا الاقتحـام للميدان: تلك المشرحة الحميمة التى هى الصحراء عنده)

وعند اقتراب الجنود تنهض الفتيات بصعوبة، بعد أن كن قد سقطن فى أثناء مسيرتهن. يصلن إلىّ وهنّ يتعثرن.

هنا تتغلب الأسـطورة على التاريخ: إن هؤلاء الفتـيات سوف يصبـحن الشخصية الرئيسـية فى المأساة.. ولهن الكلمة الأخيـرة: ما من شىء ملْك للإنسان وإنما يجب عليه أن يتقاسم كل شىء فى سر الأرض، يتقسم قناعته

ويتقاسم سره ويتقاسم هـــواه المشبوب، بل عليه أن
يتقاسم كل شيء فى مقابل وجوده فى عالم قـــادم.
إن ذلك جوهرى لتطور المأساة: حيث تبدو الأسطورة
أكثر صدقًا، وأعظم قدمًا، وأجلى وأصفى من التاريخ:
إنه انتقام الكلمة القديمة، انتقام الشعر فى المسرح، على
«المسرح» إنهن، هنا، يقدمن للعالم الحديث تلك
الهشاشة التى فقد العالم حسها.

الكورس : (يندب مصير المرأة المتوحشة) فلنبكِ على الفريسة التى
يتأخر مصيرها، وهى عرضة لكـــل هـــذه الضوارى.
إن أكثر من صقر واحد يهبط من عليائه، من أجلها،
ولا يعود يحس بأجنحته.

قائدة الكورس: فلنبكِ على الفريسة التى يتأخر مصيرها، عُرضةٌ لكل
هذه الضوارى..

الكورس : فلنبكِ المجرم الذى لا يعود يعرف أن يمسك بسلاحه...
إن العشيقة ليس عندها له إلا أمر واحد، لا أمل فيه،
لكنه لا يستطيع أن ينفذ الأمر.. ولا أن يعيش بعد
موتها.

قائدة الكورس: فلنبك على المجرم الذى لا يعود يعرف أن يمسك بسلاحه.
إن دموعنا قاسية عليه. إن ذراعه تنوء باحتقار العذارى
المضطرم.

الكورس : ولكنك أنت، أيتـهـا المرأة المتوحـشـة قـد فوجـئت فى فرارك . . وأعـيد بك إلى عقـوبتك، إنه قد سلبك حب الرجال، الرجال الذين كانوا يرفعونك فى قتالهم،
الرجال الذين لن تأتى أذرعهم لكى تُنهضكِ من سقطتك.

مـصطفى : كالقـاهر الغازى موثقًا بحـبال جريمته، مـازلت أخشى،
وأتردد أمام هذه الفريسة التى تفلت منى،
وقد انطفأت فى رماد ذلك الذى سبقنى . .

قائدة الكورس : كالقاهر الغازى موثقًا بحبال جريمته . .

(تعود صـورة الصقـر فتظهـر، وتتغلب، يسرع فـى طيرانه كأنما لكى يسبق الجنود)

الكورس : (فى هلع) الصقر . . الصقر . . الصقر الأسود الأبيض . .

مـصطفى : (يهز المرأة المتوحشة) قفى. إن الصقر يحلق فى الهواء.
لكنك لستِ، بعد، تحت رحمته،
إن قلبك يجيش ويهتز، لقد حانت ساعة الصقر، ساعة الكفاح، ضد الصقر، من أجل الحياة.
إننى أسمع دمك ينبض، كعاصـفة مترددة، توشك على الهبوب.
وها أنت قد طعنت فى الصميم، فى متناول غاصب آخر . .

الكورس : (قـد استـبـد به الهلع) ها هو ذا الصـائد الغيـور يخط حوالينا دائرة الانتقام.

قائدة الكورس : (تحرض الكورس) أيتهـا اليمامـات التى يحوم حـولها الحظ النكِد . .

عليكن بالفـرار. عين الصـقر تكفى وحـدها أن تمزقكن تمزيقًا.

عليكن بالفرار أيتـها اليمـامات التى يحوم حـولها الحظ النكد،

لا يمكن الإمساك بكن، أنتن جـريحات، عليكن بالفرار من هذه الشعائر المعادية . .

شعائر الطائر الأرمل.

لا تنتظرن أن يقع اختـياره على إحداكن . . هذا الصـقر الذى لا يثنيه عن عزمه شيء.

(ينطفىء النور. ظلام مطبق)

قائدة الكورس : (فى حزن منذر) الصقر . . . الصقـر . . الصقر والعاشق يتنازعان الميتة.

الكورس : (فى الظلام) فلنتـشـجع . . إننا ندخل غـمرة المـعركـة الضارية.

فى ضجيج اصطدام المنقار والسكين.

يصطدمان . . يصطدمان . .

الطائر الغضوب، فى النهاية، يستأنف الطيران . .

يمطر قطرات من الدم . . يمطر قطرات من الدم . .

قائدة الكورس : (فى الظلام) لم يعد للرجل الملثم وجه،
لن يكون عليه أن يترصد العدو الذى يتقدم،
وليس لنا، نحن إلا أن نطلق آخر رصاصاتنا.

(يُسمع فى الظلام، طلقات الرصاص متتابعة فى موجات وصرخات الحرب، ويعود النور شيئًا فشيئًا إلى المشهد)

قائدة الكورس : ويحيط الجنود بالفتيات المحاصرات، على مقربة منهن جدًا. أما مصطفى، وقد دمى لثامه وأعمته ضربات الصقر، فهو يتحسس طريقه فى اتجاه المرأة المتوحشة التى يتسلى الجنود بالتحقق من موتها، إذ يركلون جثتها بالأقدام، وفى اللحظة التى يوشك فيها مصطفى أن يلمس، للمرة الأخيرة، جسم المرأة المتوحشة، تنطبق الأصفاد على رسغيه الممدودين.

(ذلك كله يجرى فى وسط جمود شامل عام، ثم يظهر الصقر من جديد. للمرة الأخيرة على الجدار يصطفق جناحاه وقد ترك الجثتين وراءه.، بينما يصطف الجنود والأسيرات فى ساحة المشهد، ظلام مطبق ضربات جونج. يسمع صوت الكورس من بعيد).

الكورس : لا.. إنه لن يموت.. إنه من أولئك الذين يقضون الجانب الأكبر من حياتهم فى الأسر أو فى المنفى. ليست هذه هى المرة الأولى.

قائدة الكورس : يحدث دائمًا أن تفرغ الأسلحة . . فقد أسرف الدم فى الكلام
والصقور لم تعد تكفى لتوفر ظروف الصحة الجنائزية البشعة
والأرض التى شبعت واكتنزت تعود تطالب بالحرث من
جديد .

الكورس : لا . . . لن نموت مرة أخرى . . لن نموت هذه المرة . .
لم تعد المرأة المتوحشة تعيش . . . ولكن الحرب تجسدها .
والحرب بحاجة إلينا . .

قائدة الكورس : قد رضى الأسلاف . . . فمنذ أن قرأنا ألغاز رسالتهم
وصهرنا أغلالهم ، وعشنا حلمهم ، وسهرنا على نومهم
لم يعد للأشباح أن يرفعوا رؤوسهم .

الكورس : قد رضى الأسلاف . .

(ستار)